الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية

الدكتور محمد طه الحاجري

الصلة بين الوراقة والحضارة صلة وثيقة دائمة ، والنسبة بين استهلاك شعب ما للورق ومبلغ نصيبه من الحضارة نسبة ثابتة مطردة ؛ فبقدر إحساسه بالحاجة إلى هذه المادة ، واستجابته لهذا الإحساس ومضيه معه ، وقيامه بهذه الحاجة ، يكون حظه من الحضارة بجانبيها : المادي والمعنوي . وقد أولع الناس باستنباط المقاييس المختلفة التي يعايرون بها حضارة هذا الشعب وذاك ، ويوازنون بها بين مستوى الحياة هنا ومستوى الحياة هناك ، كلما جـــد جديد وذاع في عالم العلم والصناعة والاختراع . فمرة هو الصلب ، وأخرى هو البترول ، وثالثة هو الكهرباء ، وأخيراً هو الذرة ، إلى غير ذلك . ولكن مقياس الورق مقياس قديم جديد ثابت دائم ، ظل ـ وسيظل أمداً طويلاً فيما نعتقد ـ معياراً صحيحاً دقيقاً للحضارة في صورتها المادية والمعنوية .

وللورق في الحضارة الاسلامية مكانـــ ظاهر ممتاز حقاً ، يثير العجب ويبعث على الاعجاب ، وله فيها تاريخ رائع حافل ، نستطيع أن نتبين في مراحله ووجوهه المختلفة المعالم البارزة لهذه الحضارة ، كما نستطيع أن نعرف فيها كثيراً من العوامل المؤثرة في تطور

هذه الحضارة وتوجيهها . وان يكن ـ مع هذه المكانة التي لا شك فيها ـ تاريخاً مغموراً ، توزعت أجزاؤه ، وتبعثرت أشلاؤه ، وتقطع سياقه ، وذهب في غمار القرون . ولكنا سنحاول هنا أن نجلو بعض وجوه ذلك التاريخ ، بأن نتبين خطوطه الكبرى ومعالمه الرئيسية ، ولعلنا نستطيع بذلك أن نجلو صفحة من أمجد صفحات الحضارة الاسلامية ، وأقواها تعبيراً عنها ، ودلالة عليها .

— ١ —

ونحن حين نطلق كلمة « الورق » فانما نعني بها ذلك الجنس الذي يشمل أنواعاً مختلفة المادة والصورة ، مما جعل ليكتب فيه ، على نحو ما نرى عند ابن النديم في فهرسته في الباب الذي جعله لـ « الكلام عن أنواع الورق » . وقد نخصص ذلك الجنس العام ، فنطلق كلمة « الورق » على ما دخلته الصناعة وهذبته أساليب الحضارة ومقتضياتها ، نفرج بذلك عن تلك الصور البدائية الفجة التي تتمثل في مثل أكتاف الابل واللخاف والعسب وما اليها ، والتي نراها في مثل قول لبيد يصف كاتباً :

متعود لحن يعيد بكفه قلما على عسب ذبلن وبان [1]

وذلك على النحو الذي نراه عند القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » في الجملة التي جعلها « في بيان أسماء الورق الواردة في اللغة ومعرفة أجناسه » ، متجاوزاً تلك الانواع البدائية التي إنما تذكر ـ في حقيقة الأمر ـ من باب الاستقصاء التاريخي .

ومهما يكن من أمر في إطلاق كلمة الورق فهي كلمة عامة يندرج تحتها أنواع مختلفة ، على النحو الذي سنرى تفصيل القول فيه هنا . ولكن هذه الكلمة الشائعة التي تتسع دلالتها لتلك الانواع المختلفة هي أول ما يلفت نظر الباحث في هذا الموضوع من ناحية

(١) الأمالي ١ : ٥ .

تاريخ إطلاقها ، إذ كنا لا نعلم في حقيقة الأمر أنها كانت مستعملة بهذا الاطلاق أو لشيء من هذه الدلالة في العصر الجاهلي أو الإسلامي الأول . إنما كانت تعني ورق الشجر ، كما جاءت متعينة الدلالة على هذا في القرآن في غير موضع : « ما تسقط من ورقة إلا يعلمها [1] » « وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة [2] » ، « فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة [3] » . ومن كلمة الورق بهذا المعنى جاءت مشتقاتها في مثل : ورقت الشجرة وأورقت ، فهي مورقة وورقة ووريقة ووارقة ، وفي مثل تورق الظبي أي أكل الورق ، كما جاء في قول امرىء القيس :

وقد ركدت وسط السماء نجومها ركود نوادي الربرب المتورق

ومن هذا المعنى الأول لكلمة الورق جاءت معانيها الأخرى ، من إطلاقها على المال من إبل وغنم ودراهم ، كما في قول كثير :

فما ورق الدنيا بباق لأهله ولا شدة البلوى بضربة لازب [4]

وعلى ما استدار على الأرض من الدم ، وعلى نضرة الشباب ، إلى غير ذلك من المعاني التي توردها كتب اللغة ، ونراها في آثار الجاهلية والعصر الاسلامي الأول . وليس بين

---

(١) سورة الانعام ، آية ٥٩ . (٢) سورة الاعراف ، آية ٢٢ .

(٣) سورة طه ، آية ١٢١ .

(٤) اصلاح المنطق ، ص ٣٢٠ ، ط دار المعارف ١٩٤٩ . ويرى الأب انستاس الكرملي ان اطلاق كلمة الورق على الدراهم لا يرجع الى ذلك الأصل . وانما يرى ان هذه الكلمة بهذا المعنى فارسية الأصل أو يونانيته ، من (برة) أو (بارة) الفارسية ومعناها قطعة ، « ومنها البارة التي كانت مستعملة ولا تزال تستعمل في ديار الترك ، لنقد صغير من النحاس » أو من الكلمة اليونانية Baros « ومعناها ثقل أو حمل ، ومعلوم أن أصل الأوزان والاثقال مأخوذ من ثقلها . وهكذا وضعوا المثقال والرطل والأوقية الى غيرها » انظر ص ١٦٣ — ١٦٤ من كتاب النقود العربية وعلم النميات ، المطبعة العصرية ، ١٩٣٩ .

هـــذه المعاني المختلفة ذلك المعني الذي غلب على الـكلمة فيما بعد ، حتى كاد يهدر كل تلك المعـاني .

وقد يقع الباحث في الشعر الجاهلي والآثار الاسلامية الأولى على بعض النصوص التي توهم استعمال كلمة « الورق » في ذلك المعنى ، كهذا البيت من شعر ذي الخرق الطهوى :

لما رأت ابلي جاءت حلوبتها هزلى عجافاً عليها الريش والورق[1]

ولـكن الأشبه أن تكون كلمة الورق هنـا بمعنى ورق الشجر . على أن هناك رواية أخرى تضع كلمة « الخرق » موضع كلمة « الورق » ، وقيل إنه من أجل هـــذا البيت ـ بهذه الرواية ـ سمي الشاعر « ذو الخرق » .

ولعل بيت حسان :

عرفت ديار زينب بالـكثيب كخط الوحي في الورق القشيب

أقوى إيهاماً ، لولا أن هناك رواية أخرى تضع كلمة « الرق » موضع كلمة « الورق » بل لولا هذه الرواية لـكان في البيت دلالة قوية على استعمال كلمة الورق بذلك المعنى في ذلك العصر ، ولـكن وجود هذه الرواية يسقط هـــذا الدليل ، إذ كان قد تطرق اليه الاحتمال ، فبطل به الاستدلال .

وهنالك شبهة أخرى تعرض فيما أورده أبو موسى الاصبهاني في كتابه « غريب الحديث » من حديث عرفجة ، أنه « لما قطع انفه يوم الـكلاب اتخذ أنفاً من ورق فأنتن ، فاتخـــذ أنفاً من ذهب » . والذي يجعل من هذا النص مثاراً للشبهة هو انكار الاصمعي أن يكون المراد بالورق ، في هذا النص ، الفضة ، كما هو المتبادر ، وقوله في توجيه انكاره هذا : « انه إنما اتخذ أنفاً من ورق ، بفتح الراء ، أراد الرق الذي يكتب فيه ، لان الفضة لاتنتن » . فان صح هذا الذي ذهب اليه الأصمعي في تحرير كلمة الورق وتعيين المراد بها في حديث

(١) الاصمعيات ص ١٢٣ .

عرفجة هذا ، كان في هذا النص دليل صريح على أن هذه الكلمة كانت مستعملة ، منذ ذلك العصر ، في معنى الرق الذي يكتب فيه .

ولكن ما ذهب اليه الأصمعي في ضبط هذه الكلمة وتحرير المراد منها لم يبنه ـ كما هو ظاهر ـ على رواية يرويها ، بل على استنتاج يستنتجه مما يعتبره في الفضة وأنها لا تنتن فاذا لم يكن هذا الاستنتاج متعيناً فلا قيمة له ، كما أنه إذا سقط ذلك الاعتبار الذي يبنى عليه استنتاجه هذا فقد سقط ذلك الاستنتاج وبطل ما ذهب اليه ، وبقيت كلمة الورق في هذا النص مكسورة الراء ، بمعنى الفضة . والواقع أن هذا الاعتبار الذي بنى عليه الأصمعي استنتاجه لم يسلّم له ، فقد عقب عليه القتيبي بقوله . « وكنت أحسب أن قول الأصمعي إن الفضة لا تنتن صحيحاً حتى أخبرني بعض أهل الخبرة أن الذهب لا يبليه الثرى ، ولا يصدئه الندى ، ولا تنقصه الأرض ، ولا تأكله النار ؛ فأما الفضة فإنها تبلى وتصدأ ويعلوها السواد والنتن [1] » .

فقد سقط ذلك الاعتبار كما نرى ، وسقط بذلك استنتاج الاصمعي ، فقد سقطت الشبهة إذن . وبقي ذلك الفرض قائماً لا اعتراض عليه ، وهو أن كلمة الورق لم تعرف بمعناها الغالب الشائع المتعارف لا في العصر الجاهلي ولا في عصر صدر الاسلام إذا صح استقصاؤنا .

ثم تمضي بعد ذلك فترة أخرى نتفقد فيها هذه الكلمة بهذا المعنى ، فيما بين أيدينا من الآثار الأدبية المختلفة فلا نظفر بشيء . ولكننا لا نكاد نوغل قليلا بعد ذلك حتى نراها شائعة ذائعة ، تملأ الأفواه وترددها المجامع ، وقد اشتقت منها كلمة « التوريق » وكلمة « الوراقة » للدلالة على تلك الصناعة ، وكلمة « الوراق » لمحترف الوراقة ، وحتى نرى

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣ : ٢١٨ ، ط الخيرية ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ . وانظر : لسان العرب مادة : (ورق) .

أسواق الوراقين ودكاكين الوراقين ، تمثل صورة بارزة من صور الحياة في الأمصار الاسلامية ، وتصبح عنصراً خطير الأثر في الحياة العلمية والأدبية ، وحتى نرى هذه الكلمة قد غلبت على سائر الكلمات التي كانت مستعملة من قبل للدلالة على المادة التي يكتب فيها ، فضمتها اليها ، وأدرجتها في عمومها ، وصارت تدل عليها جميعاً دلالة واحدة . وبهذا كان لها ذلك العموم الذي أشرنا منذ قليل اليه .

وبتتبع هذه الكلمات ، وتعرف ما تنطوي عليه كل منها من دلالات ، نستطيع أن نتبين كثيراً من الوجوه والأطوار في تاريخ الورق والوراقة . وأحسب أنه يكفينا من ذلك أن نتتبع هذه الأصول الخمسة ، وهي : الصحيفة ، والرق ، والمهرق ، والقرطاس ، والكاغد .

— ١ —

فاما الصحيفة فهي من الكلمات العامة التي ينطوي تحتها أكثر من صورة ، وتختلف دلالتها باختلاف العصور ، كما يتغير مفهومها بتغير السياق واختلاف الملابسات . وقد جاءت في القرآن ، في صيغة الجمع ، في غير موضع :

« وقالوا لو لا يأتينا بآية من ربه ، أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى [1] » ، أو لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى [2] » ، « إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى [3] » ، « بل يريد كل منهم أن يؤتى صحفاً منشرة [4] » ، « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة [5] » .

ولا ريب أن صحف موسى في هذه الآيات هي التي أشار اليها القرآن في مواضع

---

(١) سورة طه ، آية : ١٣٣ .
(٢) سورة النجم ، آية : ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) سورة الأعلى ، آية : ١٨ ، ١٩ .
(٤) سورة المدثر ، آية : ٥٢ .
(٥) سورة البينة ، آية : ٢ ، ٣ .

أخرى ، وسماها بالألواح ، في قوله تعالى :

« وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء [1] » ، « ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي ، أعجلتم أمر ربكم ، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه [2] » ، « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون [3] » .

وإذن فقد كانت الصحيفة تطلق أحياناً بمعنى اللوح ، ومادة اللوح الخشب ، كما ينص على ذلك أهل اللغة ، وكما يستفاد من قوله تعالى في التعبير عن السفينة : « وحملناه على ذات ألواح ودسر [4] » .

وجاءت الصحيفة أيضاً في الشعر الجاهلي ، في مثل شعر المتلمس عن الصحيفة المنسوبة اليه ، كقوله :

أودى الذي علق الصحيفة منهما ونجا حذار حياته المتلمس

ألق الصحيفة ، لا أبالك ! إنه يخشى عليك من الحباء النقرس [5]

وإذا كنا لا نستطيع أن نعرف من هذا الشعر كيف كانت صحيفة المتلمس هذه ، وأي شيء كانت مادة الصحف في ذلك العهد ، فقد جاء في شعر المتلمس نفسه ما يشير لنا إلى هذا ، وذلك إذ يقول في إحدى قصائده التي قالها في هجاء عمرو بن هند ، بعد لحاقه بالشام :

ورهنتني هندا ، وعرضك في صحف تلوح كأنها خلل [6]

---

(١) سورة الاعراف ، آية : ١٤٥ . (٢) سورة الاعراف ، آية : ١٥٠ .

(٣) سورة الاعراف ، آية : ١٥٤ . (٤) سورة القمر ، آية : ١٣ .

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ١٣٢ ، ط دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٦٤ هـ .

(٦) الأغاني ٢١ : ١٣٥ .

والخلل هي جفون السيوف ، وكل جلدة منقوشة خله ، كما يقول صاحب اللسان وإذن فقد كانت مادة الصحيفة في عهد المتلمس الجلد .

وقد ظلت هذه هي صورة الصحيفة إلى ما بعد الاسلام ، كما يدل على هذا إطلاق كلمة « المصحف » على مجموع الصحف التي كتب القرآن فيها ، فانما كان القرآن يكتب على الرقوق وحدها [1] . ثم كما قد يفهم من هذه العبارة التي قالها الجاحظ على لسان أحد بخلائه ، في سياق حديثه عن استخراج وجوه المنفعة من الكساحة : « وما كان من الصحف فلرءوس الجرار [2] » ، فانما هو الجلد الذي يتصور غناؤه في هذا . وكذلك يقول أبو عبد الله الاسكافي المتوفى سنة ٤٢١ : « والصحف ما كان من جلود [3] » .

ثم لم تلبث كلمة « الصحيفة » أن أصبحت تطلق على القرطاس ، وهو الورق بمعناه الخاص ، إلى جانب اطلاقها على الرق المصنوع من الجلد ، فيقول الزمخشري في التعريف بها : « قطعة من جلد أو قرطاس يكتب فيه [4] » . ثم أصبحت بعد ذلك مرادفة لكلمة القرطاس بذلك المعنى ، حين بطل استعمال الرقوق أو كاد ، كما نرى ذلك عند القلقشندي ، إذ يقول : « القرطاس والصحيفة ، وهما بمعنى واحد ، وهو الكاغد [5] » .

— ب —

أما الرق فهو نوع خاص من الورق مادته الجلد ، وقد هذب وعولج بالصناعة ، حتى يصلح لما يراد له من الكتابة عليه . فهو — كما يقول المبرد ، فيما يحكيه القلقشندي عنه — ما يرقق من الجلود ليكتب فيه . وقد رأيناه في بعض مفهومات كلمة « الصحيفة » . وقد

---

(١) صبح الاعشى ٤ : ٤٧٥ ط المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩١٣ .

(٢) البخلاء ص ١٢٩ ط دار الكاتب المصري .

(٣) مبادىء اللغة ص ٩٠ ، مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ .

(٤) اساس البلاغة ، مادة (ص ح ف) . (٥) صبح الأعشى ٢ : ٤٧٤ .

وردت كلمة « الرق » في القرآن في قوله تعالى : « والطور وكتاب مسطور في رق منشور [1] » .

ويظهر أن صناعة الرقوق صناعة فارسية في أصلها ، وعلى هذا تدل هذه العبارة التي ذكرها الجهشياري في التعليق على خبر أورده عن المنصور ، إذ استكثر القراطيس في خزائنه ، فهم ببيعها ، ثم بدا له فعدل عن ذلك ، إذ « ليس يؤمن حادث بمصر فتنقطع القراطيس بسببه » . قال الجهشياري : « ولهذه العلة كانت الفرس تكتب في الجلود والرق ، وتقول : لا نكتب في شيء ليس في بلادنا [2] » .

— ج —

فاذا انتقلنا إلى كلمة « المهرق » وجدنا نوعاً آخر من الورق ، أدل على الحضارة ، وأدخل في باب الصناعة ، وأوثق صلة بالحياة المترفة ، كما سنرى بعد قليل في تفسير هذه الكلمة . وهي لم ترد في القرآن كما ورد غيرها ، ولكنها جاءت في الشعر الجاهلي ، وخاصة في شعر الشعراء الذين اتصلت اسبابهم بالحيرة ، فنراها مثلا في شعر الاعشى ، في مثل قوله:

ربي كريم لا يكدر نعمة وإذا يناشد بالمهارق انشدا [3]

أو في مثل هذا البيت الذي ينسبه الصولي له :

وأنى ترد القول دار كأنها لطول بلاها والتقادم مهرق [4]

كما نراها في شعر الحارث بن حلزة ، إذ يقول في معلقته :

حذر الجور والتعدي ، وهل ينـ قض ما في المهارق الاهواء

---

(١) سورة الطور ، آية ١ — ٣ .

(٢) الوزراء والكتاب ، ص ١٣٨ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٣٨ .

(٣) ديوان الأعشى الكبير ، ص ٢٢٩ ، المطبعة النموذجية ، القاهرة ١٩٥٠ .

(٤) أدب الكتاب ، ص ١٠٦ ، ط السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ .

وإذا كانت كلمة المهرق في البيت الثاني من هذه الأبيات لا تؤدي أكثر من صورة بيانية مشهورة ، ولا تدلنا في سياقه على شيء من خصائص هذا النوع من الورق أو صفاته ، فإنا نستطيع أن نرى في البيتين الأخيرين شيئاً من الدلالة على بعض وجوه استعمال المهارق مما تختص به ، وهو تدوين الدين وتسجيل العهود والمواثيق . وذلك مصداق ما يذكره الجاحظ في بعض سياق كلامه عن الكتاب ، إذ يقول : « والمهارق ليس يراد بها الصحف والكتب ، ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود وميثاق وأمان »[1] .

وإذن فنحن من « المهرق » بإزاء نوع خاص من الورق ، خصص بوجوه معينة من الاستعمال لا يعدوها إلى غيرها من سائر وجوه الكتابة . وقد يكون هذا التخصيص راجعاً إلى غلاء مادته وتكاليف صناعته حيث كان يصنع ، في بلاد الفرس ، وقد يرجع إلى قلته أو ندرته في الجزيرة العربية ، أو إلى الملابسات الأولى التي لابست دخوله إليها وآستعماله فيها .

وكلمة « المهرق » كلمة دخيلة على اللغة العربية ، وقد وجدت سبيلها إليها — كما وجدت المهارق سبيلها إلى البيئات العربية — في هذه الصلات الدائمة التي تربط بين العرب ومجاوريهم ، يقول الخطيب أبو زكريا التبريزي ، فيما كتبه شرحاً على أحد أبيات عارق الطائي ، من شعراء الحماسة : « والمهارق جمع مهرق ، وهو فارسي معرب . وكانت العرب تصقل الثياب البيض ، وتكتب فيها كتب العهود ، وما أرادوا بقاءه على الدهر »[2] ، كما يقول في موضع آخر : « والمهارق الصحف ، واحدها مهرق ، فارسي معرب ، خرزة

(١) كتاب الحيوان ١ : ٧٠ ، ط مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة .

(٢) شرح ديوان الحماسة ٤ : ١٣٠ ، ط المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٢٩٦ هـ .

يصقلون بها ثياباً كان الناس يكتبون فيها ، قبل أن تصنع القراطيس في العراق »[1] . أما صاحب اللسان فقد احتفظ لنا في كلامه عن هذه المادة بما يزيد هذا التفصيل بياناً ، ويشير إلى طريقة تهيئة هـــذا النوع من الورق ، إذ يقول في التعريف بالمهرق : « ثوب حرير أبيض ، يسقى بالصمغ ويصقـل ، ثم يكتب فيه ، وهو بالفارسية « مهره كرد » . وقيـل « مهره » لأن الخرزة التي يصقل بها يقال لها بالفارسية كذلك » .

فالمهرق — كما نرى — كلمة فارسـية وصناعة فارسية . ولا عبرة بـكلمة « العرب » في عبارة الخطيب التبريزي ، فقد تـكون تصحيفاً أو سهواً ، كما قد يكون المقصود بها أهل العراق بعد الاسلام ، و « قبل أن تصنع القراطيس في العراق » . وإلى الفرس كان العرب ينسبون هذا النوع من الورق ، كما نرى في هـذا البيت من شـعر الحارث ابن حلزة :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس[2]

على ان صاحب اللســـان يورد في كلامه عن المهرق شطر بيت للحارث بن حلزة أيضاً ينسب فيه المهـارق الى « الحبش » ، وكأنما هو عجز ذلك البيت ، وقـد وضعت فيه كلمة « الحبش » مكان كلمة « الفرس » . فاذا كانت الرواية صحيحة ، وكانت هذه الـكلمة في صورتها كما قالها الحارث ، فلعل ذلك يدل على أن الأحباش كانوا في بعض الحالات واسطة

---

(١) شرح القصائد العشر ، ص ٢٦٨ ، ط دار الطباعة المنيرية ، القاهرة ، ١٣٠٢ هـ . ولم تسكن القراطيس تصنع بالعراق ، وانما يريد بالقراطيس الورق أو السكاغد .

(٢) المفضليات ، ص ٣٠ ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٩٢٦ .

انتقال « المهارق » من الفرس إلى العرب ، وبذلك وقعت نسبتها إليهم ، وتفسير هذا قريب يسير .

— ر —

وإلى جانب الرقوق المصنوعة من الجلد ، والمهارق المصنوعة من الحرير ، كان هناك نوع آخر من الورق ، أدل منها على الحضارة ، وأدخل منها في باب الصناعة ، وهو « القراطيس » . وقد ورد القرطاس في القرآن مفرداً ومجموعاً :

« ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » [1] ، « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » [2] .

وظاهر من هاتين الآيتين أن القراطيس كانت في ذلك العهد من أدوات الكتابة المعروفة في بلاد العرب ، وانها كانت مما يتخذه اليهود لأنفسهم يكتبون فيها كتبهم المقدسة ، كما كانت السنة الفارسية أن تكتب كتب الدين في المهارق ، كما رأينا . على أن مما هو جدير بالملاحظة أن أولى الآيتين مكية ، فالحديث فيها عن أهل مكة ، ولهذا دلالته — فيما نحسب — على أن القراطيس كانت معروفة بينهم ، لحياتهم التجارية والصلات التي أتاحتها لهم

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٧ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ٩١ .

هذه الحيـاة ، وصلتهم بالبيئات التي كانت تســتعمل القراطيس ، كالشام مثلاً ، مما أتاح للقراطيس أن تداخل — بشكل ما — حياتهم .

وطرفة يذكر القرطاس في معلقته فيسميه « قرطاس الشآمي » ، وذلك إذ يقول :

وخد كقرطاس الشآمي ، ومشفر كسبت اليماني قــدّه لم يحرد

وهذه القراطيس التي صارت تطلق فيما بعد إطلاقاً تاماً على الورق في صوره المختلفة ، كانت في ذلك العهد تعنى نوعاً خاصاً منه ، يخالف الرقوق والمهارق ويتميز عنها تميزاً تاماً ، فهي متميزة في صورتهـا وفي مادتها ، كما تتميز في مصدرها وفي الجهة التي تجيء إلى بلاد العرب منها ، فلم تكن تجيء من الشرق من بلاد كسرى ، كما كانت تجيء الرقوق والمهارق ، وإنما كانت تجيء من بلاد الشــام وبلاد الروم ، وكان مصدرها الأول هو مصر بلد الفراعين ، حيث ينبت ذلك النبات الذي يسمى بالبردي . وقد استطاعت الحضارة المصرية منذ عهد موغل في القدم أن تستغل هذا النبات في صناعة ذلك النوع من الورق الذي جاء فريداً في بابه . وقد افتنت في صنعه وتجويده بحيث يغالب الزمن وصروفه ، واستطاعت أن تكفل به حاجاتهـا الدينية والأدبية ، وأن تمضي به شؤونها السياسية والاداريـة ، كما استطاعت أن تذيع به مكانتها في أنحاء العالم المتحضر ، حيث انتشر فيها ، وأصبح ضرورة من الضرورات التي لامعدى عنها .

فلم يكن عجيباً إذن أن يعرفه العرب ، ولا سيما أهل مكة ويثرب ، وهم — كما نعلم — أصحاب تلك المنزلة الظاهرة في التجارة القــديمة ، وبلادهم تقع على أحد الطرق الكبرى للقوافل التجارية التي تربط بين أجزاء العالم القديم .

وكلمة « قرطاس » التي عرف بهــا العرب ذلك النوع من الورق هي بعينها الكلمة

اليونانية التي تدل عليـــه : خرتاس (Khartés) ، وهي التي جاءت منها الكلمة اللاتينية Charta بذلك المعنى . وكذلك نقل الجواليقي والخفاجي أن هذه الكلمة غير عربية الأصل [1] .

وقد أنكر شارح معرب الجواليقي ، الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر ، هذا الرأي ، معلقاً على عبارة الجواليقي بأن « هذا قول شاذ لم يحكه غير المؤلف » . ولكن شذوذه — على فرض صحته — لا يمنع أنه قول صحيح صريح على الوجه الذي بينا ، من غير أن يدفعه أو يوهنه أن الكلمة قرآنية ، كما يقول الأستاذ الشيخ أحمد شاكر في تعليقه . ولم يجادل أحد من أهل اللغة في أن القرطاس يعني ذلك النوع الخاص من الصحف المتخذ من ردي مصر ، لا الصحيفة إطلاقاً ، كما يريد الأستاذ الشيخ شاكر أن يقول . كما لا جدال — فيما هو ظاهر — أن العرب إنما عرفوه من هؤلاء الروم الذين كانوا يستوردونه من مصر ، فمن الطبيعي الذي لا غضاضة فيه أن يكون العرب قد عرفوه ، منذ عرفوه ، باسمه الذي كان يطلقه هؤلاء الروم عليه ويعرفونه به ، كما عرفوا المهارق باسمها الفارسي . ولا فرق في هذا بين أن تكون الكلمة جاءت في القرآن أو لم تجيء فيه .

على أنه إذا كان العرب قد عرفوا القراطيس — كما رأينا — في جاهليتهم ، فليس يعني هذا شيوع استعمالها بينهم ، إذ لم يكن أسلوب الحياة عندهم يدعو إلى كثرة استعمال الورق ، إنما كان اصطناعهم إياها في نطاق ضيق محدود . ومن ذلك ما نراه من أنهم كانوا في معظم أحوالهم يكتبون — حين لا يكون من الكتابة بد — على هذه الأدوات البدائية المشتقة

---

(١) المعرب ، ص ٢٢٩ ، ط دار الكتب المصرية ، شفاء الغليل ، ص ١٥٩ .

من بيئتهم ، كأكتاف الإبل والعسب واللخاف وما إليها . أما القراطيس فقد كانت ـ ولا ريب ـ بالقياس إلى هذه الحياة البدوية لوناً من ألوان الترف ، وهيهات أن يكون للترف نصيب في البادية . وكذلك كان من الطبيعي أن يقتصر بالقراطيس — كما كان يقتصر بالمهارق والرقوق — على ما كان يعتبر من مظاهر الحياة المتحضرة ، من كتابة العهود وتسجيل المواثيق وتدوين الكتب المقدسة ، عند سراتهم وأهل المنزلة الدينية الممتازة بينهم . أما ما عدا ذلك ففي تلك الأدوات البدائية القريبة اليسيرة ما فيه الكفاية .

وحسبنا في بيان هذا والدلالة عليه أن نذكر أن القرآن الكريم كان يكتب وقت نزوله على تلك المواد الأولية ، وظل مكتوباً عليها حتى اتجه أبو بكر الصديق إلى جمعه وضم بعضه إلى بعض ، ونسخه في الصحف . وقد كان ذلك الصنيع أمراً محتوماً لا بد منه ولا معدى عنه ، وعلى أن تلك الصحف التي كتب القرآن فيها لم تكن قراطيس ، وإنما كانت رقوقاً ، كما نجد النص على ذلك فيما أورده القلقشندي ، إذ يقول : « وأجمع الصحابة رضي الله عنهم على كتابة القرآن في الرق ، لطول بقائه ، أو لأنه الموجود عندهم حينئذٍ »[1] . وأكبر الظن عندنا انه كان لكل من هذين الاعتبارين الذين ذكرهما القلقشندي مكان في اتخاذ المسلمين الرقوق في ذلك الوقت لصحف المصحف دون القراطيس . فهي — ولا ريب — أبقى على الدهر ، وأصبر على عوادي الأيام ، ولا سيما في تلك البيئة ؛ وهي ، من ناحية أخرى ، أوفر عندهم ، ولا سيما في زمان أبي بكر ، قبل فتح مصر ، وفي إبان تلك الحروب التي جعلت الدولة الاسلامية الناشئة تشنها على دولة الروم صاحبة السيطرة على مصر ، منبت البردي ومصدر القراطيس . وقد كانت الشام — وهي المصدر المباشر للقراطيس في بلاد العرب ، كما رأينا — هي مسرح هذه الحروب إذ ذاك .

وفتح المسلمون مصر في أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، وبذلك أصبح أمر مصانع

---

(١) صبح الأعشى ٢ : ٤٢٠ .

القراطيس فيها إليهم . ومع ذلك ظل استعمال هذا النوع من الورق في الدولة الاسلامية محدوداً ، إذ كان ما يزال يحمل اعتباره القديم لدى العرب ، وهو انه صنف رفيع مترف بالقياس إلى الرقوق . وإن كانت ضرورات الحياة الجـــديدة في هذه الدولة الجديدة ، وحاجات التنظيم الاداري فيها ، ومقتضيات العلاقات السياسية المختلفة لها ، إلى غير ذلك مما استحدث من شؤون ، مما يضاعف — بطبيعة الحال — الشعور بالحاجة إلى مثل هـذا النوع من الورق ، إذ هو على الأقل أيسـر تداولاً وأخف محملاً . ولـكن أمر استعمال القراطيس ظل مرتبطاً بهذه الحاجة في أضيق حدودها ، وحيث لا يغنى عنها غيرها .

وينقل القلقشندي عن محمد بن عمر المدائني ، صاحب كتاب القلم والدواة ، « أن الخلفاء لم تزل تستعمل القراطيس امتيازاً لها على غيرها ، من عهد معاوية » [1] . وفي هذا دلالة واضحة على أن صفة الترف ظلت ملازمة للقراطيس في الاعتبـار العام ، حتى إن استعمال الخلفاء لها كان يعد من باب الامتياز الذي تمتاز به على غيرها ، كما يقول المدائني، وبذلك ظلت الرقوق — كما كانت من قبل — المادة العامـة الغالبة للصحف والـكتابة ، كما ينص على ذلك ابن خلدون إذ يقول : « وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعـة من الجلد » [2] وقد استمر الأمر على ذلك أمداً غير قصير ، كما سنرى بعد .

ولم يغير فتح العرب مصر شيئاً من صناعة القراطيس فيها وتجارتها ، فقد ظلت المصانع على شأنها في إنتاج هذا النوع من الورق ، كما كانت تنتجه من قبل ، وظلت بلاد الروم تستورده منها كما كانت تستورده من قبل ، وكانت — فيما يبدو — أكبر عميل لهـذه المصانع . لم يتغير شيء فيما يتصل بهذه الصناعة بتغير الولاية على مصر وتبدل الحالة السياسية

(١) صبح الأعشى ٦ : ١٨٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٢٠ ، المطبعة الشرقية ، ١٣٢٢ هـ .

فيها ، حتى لقد ظلت هذه القراطيس محتفظة بطرازها القديم المنقوش في رءوسها منذ كانت مصر بلداً من بلاد المسيحية ، لم يتغير منه شيء ، كأن لم تنتقل الولاية على مصر إلى الدولة الاسلامية ، ولم يصبح الاسلام دينها الرسمي ، وبقي الأمر على ذلك زمناً ، إلى أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) ، وهو العهد الذي نضج فيه كيان الدولة السياسي ، وجعلت تنتبه إلى تحقيق مظاهر سيادتها المختلفة . وإذ ذاك أخذت الدولة تلتفت إلى هذه القراطيس وتوليها شيئاً من العناية ، فاتجهت إلى أن يكون طابعها طابعاً إسلامياً ، باعتبارها صناعة إسلامية ، إلى جانب كونها صناعة مصرية ، وهي بذلك إنما تحقق ذلك المظهر من مظاهر سيادتها ، بعد أن أغفلته أو غفلت عنه هذا الزمن الطويل ، إذ « كانت الأقباط — كما ينقل عن عوانة بن الحكم — تذكر المسيح في رءوس الطوامير ، وتنسبه إلى الربوبية ... وتجعل الصليب مكان (بسم الله الرحمن الرحيم) » .

ذلك كان طراز القراطيس المصرية منذ العهد المسيحي وسلطان الدولة الرومانية ، لم يتغير إلى أيام عبد الملك بن مروان ، وقد بلغت الدولة في أيامه غاية نضجها كما قلنا ، واستكملت سائر مقوماتها ، فكان من الطبيعي إلى تتنبه إلى ذلك الشذوذ ، وتغير ذلك النكر . وكذلك طبعت الدولة القراطيس المصرية في ذلك العهد بطابعها الاسلامي. فجعلت مكان الطراز المسيحي القديم الذي يشير اليه عوانة بن الحكم طرازاً يعارضه ؛ يرمز للعقيدة الاسلامية ويعبر عن الأصل فيها . وكان هذا الصنيع الذي اتخذته سبباً في نشوب أزمة بينها وبين دولة الروم ، كما كان سبباً في تحقيق مظهر آخر من مظاهر سيادتها ، على النحو الذي نراه في القصة التي يحكيها البلاذري ، إذ يقول :

« قالوا : كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر ، ويأتي العرب من قبل الروم الدنانير . فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب الذي يكتب في رءوس الطوامير ، من (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله ، فكتب اليه ملك الروم :

انكم أحـــدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فان تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه . قال : فكبر ذلك في صـدر عبد الملك ، فكره أن يترك سنة حسنة سنها ، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقال له : يأبا هـاشم ، إحدى بنات طبق ! وأخبره الخبر . فقال : أفرخ روعك يا أمير المؤمنين . حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها ، واضرب للنـاس سكـكا ، ولا تعف هؤلاء الـكفرة ممـــا كرهوه في الطوامير . قال عبد الملك : فرّجتها عني ، فرّج الله عنك . وضرب الدنانير [1] » .

ومنذ ذلك الوقت طبعت القراطيس المصرية بالطابع الاســـلامي ، وحققت الدولة الاسلامية بذلك مظهراً من مظاهر سيادتها ، كما أتاحت لها تلك الأزمة أن تحقق مظهراً آخر من مظاهر هذه السيادة في ناحية أخرى هي ناحية « النقد ، أو السكة » ، فصار لها نقدها الخاص بها ، بعد أن حرّمت دنانير الروم في بلاد الاسلام ومنع التعامل بها . وقد كان من الآثار التي ترتبت على طبع القراطيس بالطابع الاسلامي ونشوء تلك الأزمة بين الدولتين بسبب ذلك أن امتنع تصدير القراطيس زمناً إلى بلاد الدولة الرومانية ، وكان ذلك ـ ولا ريب ـ أمراً شديداً على الروم ، لأن صناعة الورق كانت حتى ذلك الوقت ـ فيما يبدو ـ احتكاراً مصرياً خالصاً ، إذ لم يكن الورق الصيني قـد دخل بعد في نطاق التجارة العالمية .

— ٥ —

ظلت صناعة الورق في الدولة الاسلامية صناعة مصرية خالصة ، طوال القرن الأول وأوائل القرن الثاني [2] ، حتى أخذ الورق الصيني ، وهو ما يسمى بالـكاغد ، مكانه إلى جانب القرطاس المصري ، وأصبح صناعة من الصناعات الاسلامية .

(١) فتوح البلدان ، ص ٢٤٩ ، المطبعة المصرية ، ١٩٣٢ .

(٢) ظاهر اننا نعنى بالورق هنا ما عدا الرتوق والمهارق .

وكان ذلك الحدث الخطير في تاريخ الحضارة الاسلامية بعد أن امتدت فتوح المسلمين إلى ما وراء النهر ، وتاخمت بذلك الدولة الاسلامية بلاد الصين ، فكانت هذه المتاخمة سبباً في بعض المناوشات والمعارك التي كانت ما تزال تنشب بين الحاميات الاسلامية في ما وراء النهر وبين أهل الصين ، فنشأ بذلك نوع من الاتصال بين هؤلاء وأولئك ، ثم كان من آثار هذا الاتصال ان انتقلت صناعة الورق الصيني من بلاد الصين إلى بلاد المسلمين .

وقصة هذا الانتقال أن جماعة المسلمين رجعوا في إحدى هذه المناوشات بطائفة من الأسرى، اسكنوهم سمرقند ، قصبة بلاد الصغد ، فاستقروا فيها ، وكانوا من صناع الورق الصيني ، فأنشأوا بها مصنعاً لصناعة ذلك النوع من الورق ، كما يذكر ذلك الثعالبي عن صاحب كتاب المسالك ، إذ يقول : « إنه وقع من الصين إلى سمرقند ، في سبي سباهم زياد بن صالح ، من اتخذ الكواغيد بها ، ثم كثرت الصنعة واستمرت العادة ، حتى صارت متجرا لأهل سمرقند ، فعم خيرها والارتفاق بها الآفاق [1] » .

وهكذا دخلت العربية كلمة جديدة ، هي كلمة « الكاغد » ـ ويقول هيار Huart ، في الفصل الذي كتبه تحت هذه الكلمة في دائرة المعارف الاسلامية ، إنها فارسية لعلها من أصل صيني ـ دالة على ذلك النوع من الورق المصنوع بذلك الاسلوب الخاص من الحشائش والالياف وانواع العشب الصيني ، كما كانت تطلق كلمة « القرطاس » على ذلك النوع الآخر المصنوع من البردي . وكما انتهى الأمر بكلمة « القرطاس » إلى أن فقدت مدلولها الخاص ، واصبحت اطلاقاً عاماً على الورق ، كذلك كان شأن كلمة « الكاغد » ؛ حتى لنرى الفيروز بادي يقول في التعريف بها إنها القرطاس ، وحتى نرى هيار Huart في الفصل الذي أشرنا اليه ، وقد عقده للكلام عن الورق عامة ، يضع هذا الفصل تحت عنوان « الكاغد » .

(١) لطائف المعارف ، ص ١٢٦ ، ط بريل ، ليدن .

وقد لا يكون من اليسير أن نعين على وجه الدقة والتحقيق التاريخ الذي اجتازت فيه صناعة الكاغد حدود الصين إلى بلاد المسلمين ، بالرغم مما استظهرناه في اجمال منذ قليل . وقد كان هذا التاريخ موضع خلاف عند المتقدمين ، كما نرى ذلك فيما ذكره ابن النديم عنه إذ يقول : « فاما الورق الخراساني (ويعنى به الكاغد ، كما هو ظاهر) فيعمل من الكتان . ويقال إنه حدث في أيام بني أمية ، وقيل في الدولة العباسية ، وقيل إنه قديم العمل ، وقيل إنه حديث [1] » . إذ يخلص من النص أن المتقدمين ذهبوا ثلاثة مذاهب في ذلك التاريخ ، يرى احدها أن الكاغد قديم في خراسان ، أي قبل الاسلام ، ويرى الآخر أنه دخلها في أيام الأمويين ، ويذهب الثالث إلى أنه إنما دخلها بعد قيام الدولة العباسية .

على أن النص الذي أوردناه قبل لصاحب المسالك والممالك عن الأسرى الصينيين الذين رجع بهم زياد بن صالح إلى سمرقند وأسكنهم بها يعين أنها صناعة محدثة ، وأنها إنما دخلت خراسان في هذه الظروف ، وفي خلال تلك الغارات والمناوشات الناشبة بين المسلمين وأهل الصين ، في هذه الفترة التي كان يتولى فيها هذه المناوشات ويقود هذه الغارات زياد بن صالح هذا . فمن عسى أن يكون هذا الرجل ؟ وفي أي وقت كان مناوشاته هذه ؟

هناك فيما وقع لنا ، فيما تتبعنا وتقصينا ، غير واحد يحمل هذا الاسم ، غير أن الذي يغلب على الظن وترجحه القرائن أن المقصود به في نص صاحب المسالك والممالك هو زياد بن صالح الخزاعي ، أحد نقباء الدعوة العباسية ، كما يذكر ابن جرير الطبري في حوادث سنة ١٣٠ . وكان هو الذي استخلفه أبو مسلم الخراساني على الصغد وأهل بخارى بعد أن اخضعهم ، وفرغ من بناء حائط سمرقند ، وكان ذلك سنة ١٣٤ . ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى ثار عليه ، وجمع حوله طائفة من خصومه ، فشخص أبو مسلم اليه . وانتهى أمر زياد بن صالح بأن قتل بيد أحد الدهاقنة ، سنة ١٣٥ .

---

(١) الفهرست . ص ٣٢ ، ط مصر .

هذا هو زياد بن صالح الخزاعي[1] ؛ فاذا صح ما رجحناه من أنه هو المقصود في ذلك النص ـ وتاريخ حياته على الصورة التي رأيناها يدعو إلى القول بأنه هو ـ كان لنا أن نقول في غير كبير تحرج إن تلك المناوشات التي كان من نتائجها ادخال صناعة الكاغد إلى خراسان ، إنما كانت في خلال تلك الفترة القصيرة التي تولى فيها أمر الصغد ، وكان فيها أميراً على سمرقند ، فيما بين سنة ١٣٤ ، ١٣٥ .

وبهذا نستطيع القول بأن هذه الصناعة قد انتقلت إلى بلاد الدولة الاسلامية في أوائل قيام الحكم العباسي ، أي في الوقت الذي أخذت فيه الدولة الاسلامية والجماعة الاسلامية جميعاً تتهيآن لاستقبال مرحلة جديدة من مراحل التعقد الحضاري ، في جميع صوره السياسية والاجتماعية والعلمية .

ولا ريب أن صناعة « الكاغد » أتاحت للحضارة الاسلامية مادة كان لا بد منها لهذه الحضارة التي أخذت في فترة قصيرة من الزمن تبسط اجنحتها وتمد نشاطها وتستولي على شتى الميادين التي يمكن أن تتمثل فيها ، كما أخذت تداخل حاجات الناس المادية والمعنوية مداخلة دائبة ملحة . فقد كان انتقال هذه الصناعة إذن إلى البلاد الاسلامية نوعاً من الاستجابة لهذه الحاجات الحضارية الملحة . وأكبر الظن أنه لو لم تهيء الاقدار لها أن تنتقل من بلاد الصين إلى بلاد المسلمين ، على ذلك النحو الذي رأينا ، وفي مثل تلك الملابسات التي اتيحت لها ، لكان لا بد لهذه الصناعة أن تستحدث استحداثاً وأن تبتدأ ابتداء ، فقد كانت هذه الحاجات في حقيقة الأمر أقوى قوة وأعنف الحاحاً وأشد تغلغلا

(١) هناك شخصية أخرى تحمل اسم زياد بن صالح ، هي شخصية زياد بن صالح الحارثي ، وكان أميراً من أمراء الدولة الأموية ، إذ كان أمير السكونة وقت قيام الدولة العباسية ، وكذلك كان من قواد الشام في موقعة واسط وقد خلط بين الشخصيتين واضع فهارس تاريخ الطبري ، فجعلها شخصاً واحداً ، وجعلها بهذا الاسم : زياد بن صالح النقيب الحارثي الخزاعي .

في نواحي الحياة ، من أن يمكن الاكتفاء في الاستجابة لها بالرقوق ، أو بما تقدمه مصر من القراطيس ، محدوداً بحـدود طاقاتها التي تتوقف أول شيء ، بطبيعة الحال ، على تلك المادة الأولية التي تصنع منها ، وهي « البردي » المقصور نباته على بعض النواحي من أرض مصر ، كما تتوقف على غير ذلك من الاعتبارات الصناعية .

ومنذ تركزت في « سمرقند » صناعة الـكاغد أصبحت من المدن المذكورة الـكبيرة المنزلة في الدولة وفي أنحاء البلاد الاسلامية . وقد استطاعت أن تحتفظ بهذه المـكانة زمناً طويلا . وسنرى فيما نستقبل من هذه الدراسة كيف كانت مصر في القرن الرابع تستورد الـكاغد منها ، وما أبعـد المسافة التي تصل بين مصر وبينها ، وذلك بالرغم من قيام كثير من المصانع التي تصنع الـكاغد في أنحاء البلاد الاسلامية . ولـكن كاغـد سمرقند كان صنفاً مشهوراً ، وكان له من المزايا والخصائص ما كان يجعل كثيراً من الخاصة يؤثره ويحرص عليه .

وبإزاء الحاجات الحضارية المختلفة التي كانت تتضاعف باطراد ، كان من الطبيعي أن تصبح سمرقند قاصرة عن أن تكفيها وتفي بها . وبذلك قامت المصانع في كثير من أنحاء البلاد الاسلامية ، كما قلنا ، من العراق إلى الشام إلى الاندلس . وان كنا لا نستطيع أن نتحقق ، على وجه الضبط واليقين العلمي ، متى بدأت صناعة الـكاغد تتجاوز سمرقند إلى غيرها . وإنما غاية ما نملك القول به هو أن القرن الرابع شهد عدداً من مصانع الـكاغد مبثوثاً في مختلف البلاد ، مما نرجو أن نعرض له بعد . أما قبل ذلك فليس لنا إلا ما ذكره ابن خلدون من أن الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي أنشأ صناعة الـكاغد في بغداد على غرار ما رأي في سمرقند [1] ، وهو قول لا نجد في أنفسنا الطمأنينة اليه ، كما سنفصل القول فيه في موضعه من هذا البحث ، ان شاء الله .

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٧١ .

ومهما يكن من أمر ، فقد أصبح الكاغد مادة من المواد الشائعة في الكتابة والتدوين ، كما اصبحت صناعته من الصناعات الاسلامية المنبثة في نواحي البلاد ، وقد اتخذت أفانين مختلفة .

وفي أثناء ذلك كانت المنافسة التي امتحنت بها الرقوق والقراطيس من الكاغد منافسة جادة ، وكانت ما تزال تشتد شيئاً فشيئاً ، وقد أخذ شأنها يضعف في هذه المنافسة التي لم يستطيعا أن يصمدا لها ، لما كانت تمتاز به صناعة الكاغد من ممكنات صناعية لم تتح لهما ، ثم لأن الكاغد كان يمتاز ، فضلا عن ذلك ، بيسره وأنه أكثر ملاءمة للكتابة ، إذ كان على حد تعبير الثعالبي : « أحسن وانعم وأرفق وأوفق » .

وقد انتهت هذه المنافسة بالنتيجة الطبيعية لها ، فقضى الكاغد على الرقوق والقراطيس ، وانفرد بأمر الكتابة ، كما أصبح هو وحده الذي يطلق اسم الورق عليه .

للبحث بقية

الدكتور محمد طه الحاجري